

ليلي المريضة في العراق

للدكتور زكي مبارك

- ٦ -

المحجب من سرائر النفوس ... انهضت تلك السيدة على المقعد ،
وبدأت أحاورها في ماضيها لأعرف سرّ العلة ، فما كادت تقرأ
السطر الأول من صحيفة ذلك الماضي حتى تظّار صوابي ، فوضعت
يمنىها على صدرى ، ولكن الشقية لم تهملنى وأفلتت كالظبي المدعور .
وبذلك طوى عني سرها إلى الأبد . وكانت تلك الحادثة سبباً في
انتقالي من شارع المدابغ إلى شارع فؤاد

وما أحسب ظمياء إلا صورة من السيدة (ن) وربما كانت
أفزع وأعنف فهي عراقية ، والعراقيون تغلب عليهم سرعة
الانتقال ؛ والرأفة العراقية فيما سمعت ورأيت لا تسكن إليك إلا
إن ضمنت حسن الأدب وكرم العفاف ، وهي عندئذ لا تحتاج
إلى من يستدرجها لمعسول الأحاديث ، وإنما تنطلق كالبحر التجاج ؛
فاذا ارتابت في أدبك ... لا أدري ما تصنع فإن الله رحمن من
أمثال هذه المواقف منذ قدمت العراق ، وهو عز شأنه قادر على
أن يردني إلى وطني مشرق الجبين

وجلة القول أني تجللت وتماسكت ، فضت ظمياء تتحدث ،
ومضى المطر يقرع النوافذ كأنه عذول ، وبين القلب الخافق
والسحاب الدافق صلات يعرفها من يؤمنون بوحدة الوجود

— ثم ماذا يا ظمياء ؟
— ثم وقف قطار المرض ، فلم تنزل ليلي ولم ينزل الفتى
ذو العينين الخضراوين . ودار القطار دورة ثمانية قطعها في ذهول
— وأنت أيضاً تحبين يا ظمياء ؟
— ألسنت إنسانة ، يا سيدى الطبيب ؟
(وهنارأت من الحزم أن أعلن نزاهتى ، فأنهمتها أنى أنكر
عليها هذه البدوات ، لأن الذى يهمنى هو الوقوف على سر ليلي ؛
وأشهد أنى لم أجد صموداً في اصطناع هذا النفاق ، فقد مررت
عليه بفضل ما ابتليت بالمناققين الذين تقدموا وتأخرت . ويكنى
ما مر بي من التجارب ، وأخشى أن تقنعنى الأيام بأن النفاق
سيد الأخلاق)

— أنت يا مولاي طلبت أن أقص الحديث كما وقع
— كما وقع ليلي ، لا كما وقع لك يا ظمياء ، فأنت في عافية
وليلي هي المريضة ، والحكومة المصرية لم تكلفني استقصاء أخبار
التيمنين في العراق ، وإنما كلفتني مداواة ليلي المريضة في العراق

وما كادت ظمياء تفوه بالعبارة الأخيرة حتى ابتدأت أوقن
بأن ساهتدى إلى سرّ ليلي . وقد عرفت أيضاً أنه لا بد لي من
التجمل والتوفر حتى يصل الحديث إلى مداه ، فقد قضيت دهرى
وأنا أدرعن أهوج لا أكاد أسمع الحديث عن الحب حتى يفتضح
وقارى أشنع اقتضاح . ولن أنسى ما حيت تلك الخسارة الفادحة
التي قضت بأن يطوى عني إلى الأبد سر السيدة (ن) فقد كانت
عرفت من صواحبي أن شفائها عندي ، وجاءت الشقية إلى
عيادتي بشارع المدابغ ، فلما خصتها تبين أن العلة لها سبب
مدفون ، وكنت بحمد الله ولا أزال من أقدر الأطباء على تفرس

في أوانه ، وقد استطاعت دور السينما أن تنظم علاقتها بالصحافة
على وجه مرضى ، فلن تعجز عنه دار للنشر . وبذلك يستريح
الكتاب ويطمثون على حقوقهم ، ويثقون بسعة النشر ويوقنون
من إمكان التعديل على ما يخرجون كما يفعل زملاؤهم في الغرب
وفي هذه الحالة يتسنى ما لا يتسنى الآن : الطبع الجيد ،
والحجم الموافق ، والريح المضمون ، ومع ذلك انتظام عمل الأدب
وراحة النفس الكافية من الوقت للتفكير والكتابة والاتقان
هذه — فيما أعتقد — هي الوسيلة العملية ؛ فإن الأسواق
موجودة ، والقراء يعدون بالآلاف في كل قطر ، والصحافة أداة
وافية : فالأمر لا ينقصه إلا التنظيم ؛ وهذا لا يكون إلا بالمال
الكافي ، فهاتوا لي المال ، ثم انظروا ماذا أصنع لكم يا إخوان !
ولا تخافوا أن أبده . نعم . ستحدثني نفسي بذلك وتحاول أن
تعملني عليه ، ولكنى سأقاومها ، وسأروض نفسي على هذه
القاومة من اليوم ، فلا تخشوا شيئاً ، ولا تقلقوا على مالكم ،
ومع ذلك فلأن أبده أنا خير من أن تضيعوه أنتم . ومتى كنتم
تحسنون الإنفاق ؟

إبراهيم عبد القادر المازني

— فهمت ياسيدى فهمت

— زين ، زين ، ثم ما ذا ؟

— ثم وقف القطار فتلاحظ العاشقان

— عاشقان ؟ وهل يتم العشق في لحظة ؟ هل نحن في السينا

يا ظمياء ؟

— وقع التلاحظ بين ليلي وبين ذلك الفتى ، والتعبير بالعشق

من عندى

— شئ جميل ! في أية مدرسة تعلمت يا ظمياء ؟

— في المدرسة التي تعلمت فيها ليلي ، وهي المدرسة التي

أنشأها حكمت سليمان في سنة ١٩١١ بعد إعلان الدستور العثماني ؛

وكان حكمت سليمان مدير المعارف في بغداد ، وكان تعليم الفتاة

في تلك الأيام من المسائل التي يختلف حولها المسلمون ، فكانت

ليلى أولى فتاة قيّد اسمها في تلك المدرسة

(وهنا دونت في مذكري أن ليلي قدبعة العهد بالثورة على

مأثور التقاليد ، وهذه نقطة مهمة سأعرضها على المؤتمر الطبي ،

ولعلها تكون السبب في كشف كثير من الأسرار ، فالثورة

على التقاليد تحدث رجّة في المخ والأعصاب ، كما حدثنا المسيو

ديوييه وهو يحاضرنا بكلية الطب في باريس ، وهو أستاذ فاضل

كنت السبب فيما وقع بينه وبين زوجته من شقاق)

— وهل درتم بالقطار دورة ثالثة ؟

— لا ، ياسيدى ، فقد خشيت ليلي أن تظن إليها الميرون

فزلت وزل الفتى ، ولكنه أقبل عليها يقول : هل أستطيع أن

أرشد السيدة إلى محتويات المرض ؛ فاني أراها غريبة بهذه

البلاد ؟ ولكن ليلي لم تلتفت إليه ، وانصرفنا ساكتين . وعرف

الفتى أن سهمه أخطأ ففضى كاسف البال

— وبعد ذلك ؟

— مضينا بعد ذلك إلى البيت الذي نزلنا فيه بشارع قصر

النيل ، وكان الحديث على المائدة من أشهى ما يكون ، فقد كانت

الجرائد نشرت حديثاً لرجل مشهور اسمه سعد زغلول ، وكانت

ربة البيت تحب إمتاعنا بصور الجدل السياسى في مصر ،

فأحضرت نحو عشرين جريدة فيها الرفض والقبول لتلك

الحديث ، ثم أحضرت صورة كارينكاتورية نشرت في الكشكول

لكاتب معمم اسمه عبد العزيز البشرى فيما أتذكر ، وصورة أخرى

للشيخ بجيت وهو يعترض على دخول السيدات أروقة البرلمان ،

كان الجو كله جو ضحك ، ولكن ليلي لم تبسم . ولعلها لم تعرف

كيف كان الطعام في ذلك اليوم

— مسكينة ليلي !

— نعم ، ياسيدى ، مسكينة ، فقد قضت ليلة مؤرقة ، ثم

أزعجتني من نوى قبيل الفجر لأستعد للعودة إلى المرض

— ورجعنا إلى المرض ؟

— رجعنا ، رجعنا ، وركبنا القطار عشرين مرة

— عشرين مرة ؟ ولماذا يا حقا ؟

— لنرى الفتى ذا العينين الخضراوين !

— ورأيته ؟

— مارأيته ، وإنما رأيته أنضر منه وأصبح ، رأيته فتينا

كاللؤلؤ المشور هم الشاهد على أن مصر من الحقول التي تُنبِت

الجمال . وقد أمتعت عيني بمن رأيته ، ولكن ليلي ظلت صريعة

الهم والبلبال

— مسكينة ليلي !

— هل تسمح لي أن أطم ياسيدى ؟

— تلطمين ؟ إنك لبغدادية ظريفة يا ظمياء . ما يهمنى أن

تلطمى ، وإنما يهمنى أن أسمع بقية الحديث

— لم تكن ليلي تقول إنها ترجع إلى المعرض لتبحث عن ذلك

الفتى ، وإنما كانت تدعى أنها تحب الوقوف على سرّ تقدم الزراعة

والصناعة في الديار المصرية . وحملها هذه الدعوى المزيفة على

شراء عدة نماذج مما أنتجته حقول سملاى ، وهي النماذج التي

عرضها السيد محمد محمود

— سمعت بمروضات هذا السيد يا ظمياء

— وكنت ليلي مقالة في وصف المعرض نشرتها في جريدة

« البلاغ »

— سبحان الله ! لقد قرأت تلك المقالة في ذلك الحين وكنت

أحسبها من إنشاء ليلي الصحيحة في حلوان

— لا ، ياسيدى ، هي من إنشاء مولاتى ، شفاها الله !

— آمين ، ثم ماذا يا بلهاء ؟

نجلاء ، ونظرت ليلي إلى تلك الفتاة فلم تر عينيها خضراوين ، وإنما رأت عيونها عسليه ، وهو اللون الغالب على عيون المصريين ، وهو لون ينطق عن السحر الحرام والحلال .

— اتق الأدب يا ظمياء ، فأنت في حضرة طبيب !

— الطبيب يسمع كل شيء !

— أمنت وصدقت !

— ومضت درية تباعم أمها باللغة الفرنسية . فسأت عنها

ف قيل إنها تلميذة بمعهد اللبسيه

(وهنا أجهدت ذا كرتي لأعرف من هي تلك التلميذة ، ثم تذكرت أنني لم أتصل بمعهد اللبسيه إلا في سنة ١٩٢٨ والمحمد لله على ذلك ، فإسرنى أن تكون تلميذاتي محورا لأمثال هذه الأحاديث)

— نعم يا ظمياء

— وبدا لليلي أن تسأل عن السر في اختلاف ألوان العيون ،

فأجابت السيدة نجلاء بأن درية صورة لأبيها الشيخ دعاس ؛

أما ابنها فهو صورة أمه اللبنانية . فقالت ليلي : وهل اللبنانيون

خضر العيون ؟ فأجابت السيدة : أنا لبنانية الموطن ، تركية

الأصل . فقالت ليلي : ومعنى هذا أن لك ابنا أخضر العينين ؟

فقالت السيدة : نعم ، وهو المحروس عبد الحسيب ، وهو طالب

بمدرسة البوليس ، وسيحضر بعد قليل

« للحديث بقايا »

زكى مبارك

إلى المشتركين في خارج مصر

بطلب كثير من قراء الرسالة والرواية من الطلاب في

خارج مصر أن يشتركوا فيها بالقيمة التي يدفعها الطلاب

والمعلمون الاثناميون في داخل القطر ، ويفوتهم أن يضيفوا

إلى ذلك فرق أجور البريد بين الداخل والخارج وهو

عشرون قرشا مصريا للرسالة وخمسة عشر قرشا للرواية

فيكون الرقم الصحيح كما يأتي ٥٥ + ٣٥ = ٩٠

فترجو الادارة أن يراعوا ذلك حتى لا تضطر إلى إغفال

طلبتهم (الادارة)

— قلت إن ليلي كانت تتردد على المعرض بدعوى الاطلاع

على أسباب تقدم مصر في الزراعة والصناعة ، أما أنا فكنت

أعرف ماذا تريد ، وقد استمرت هذه الدعوى أسبوعين ، ثم

يئست ليلي مما تريد ، فلم تذهب إلى المعرض بعد ذلك

— وبهذا انتهت القصة ؟

— لا ياسيدي ، فقد زعمت ليلي أنها شبتت من المرض ،

وشبتت من الأخبار الحديثة في القاهرة ، وصرحت بأنها تحب

أن ترى القاهرة المعزية ، عليها ترى ما يذكروها بأحياء بغداد ؛

فصحبتنا ربة البيت إلى حي يسمى الغورية ، فدخلنا الحزاوي

والفحامين ، وشهدنا حارة اسمها وكالة (أبو زيد) وفيها تجارة

السيد (...) الذي يبيع أدوات السمعة للسيدات ، فوقفت

ليلى عنده لحظة ، ثم انصرفت . وفي خان الخليلي رأينا سيدة

ملفوفة كأنها من عقائل بغداد ، فحيتنا على غير معرفة ، فردت

ليلى التحية بلهفة واشتياق . وأجبت أن أعرف من هذه الخامسة

من ليلي ، فنظرت إلى تلك السيدة فرأيت عينيها خضراوين !

— أعوذ بالله !

— تستعبد بالله ياسيدي من ذلك ؟

— نعم ، أستعبد بالله من شر العيون الخضر ، فهي سبب

بلائي في هذا الوجود . ثم ماذا يا ظمياء ؟

— ثم عرضت تلك السيدة أن تصحبنا لزيارة معالم القاهرة

وقالت إن زوجها أستاذ في الأزهر وأنه ينتظرها عند المعلم حسين

الجريري . ونظرت فرأيت ليلي تمشي وهي تشوي من الانشراح

كأنها تلمخ من وراء الغيب أعلام الأمل المرموق

وما هي إلا لحظات حتى كنا في حضرة شيخ جليل اسمه

الشيخ دعاس

— الشيخ دعاس ؟

— نعم ياسيدي ، الشيخ دعاس ، وهو الذي أنجب أحمد

وابراهيم وجلبى وسيد ومحمود ، وهم زينة الرجال في بلاد النيل

— رضى الله عنهم أجمعين ، ثم ماذا ؟

— ثم تملل ذلك الشيخ بضيق الوقت ، ودعانا إلى تناول

القهوة في منزله ، فركبنا سيارته ومضينا إلى داره في حي الزمالك .

ولما دخلنا أبصرنا فتاة هي قيد العيون ، بل قيد القلوب ، اسمها

دورية ، فسألنا عنها فمرقنا أنها ابنة الشيخ دعاس ، وابنة السيدة